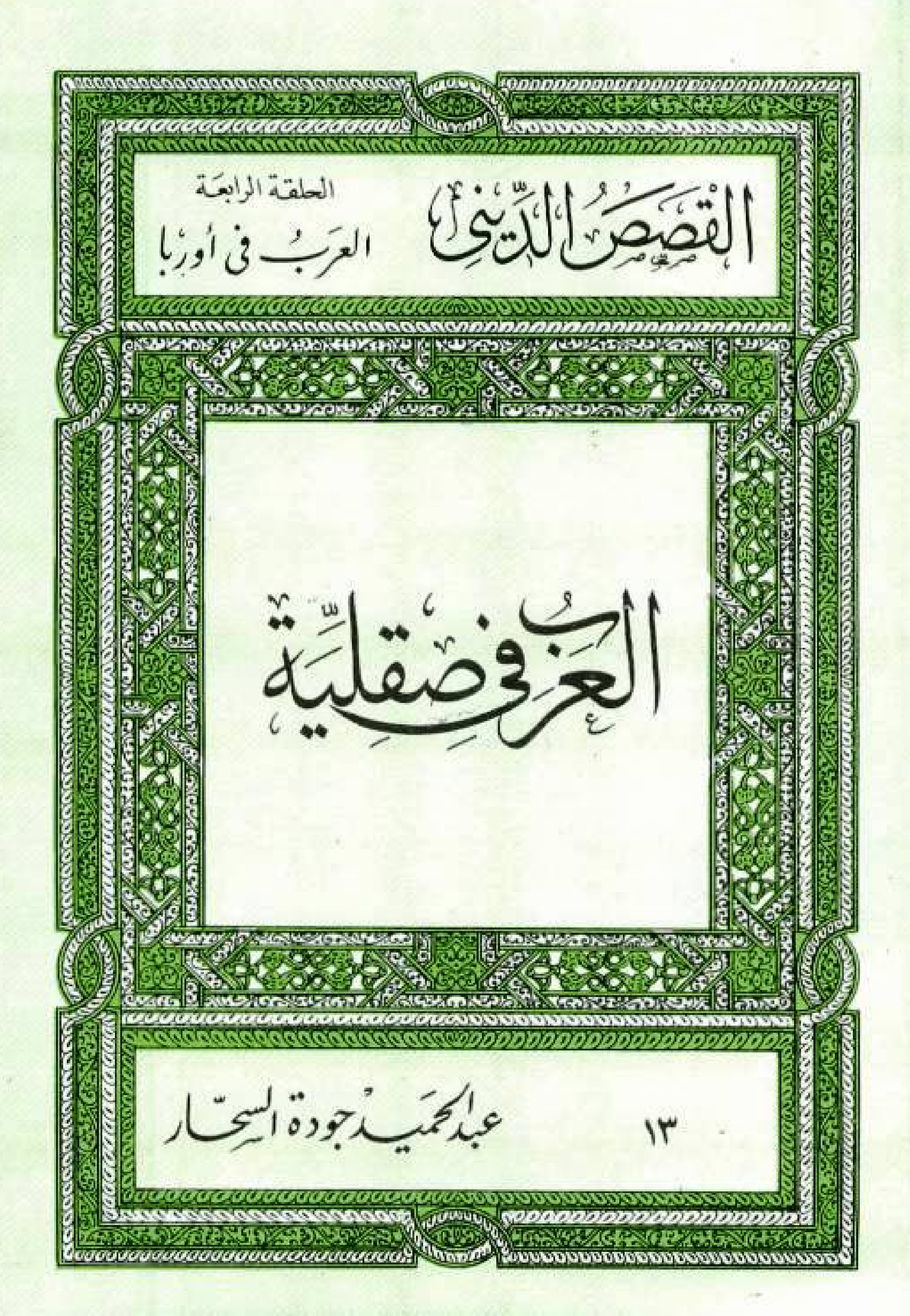

القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
العرب في صقلية
عبد الحميد جودة السحار
١٣

# ١

كان وقع أقدامِ الخَيلِ على الأرضِ الصَّلدة ، يُمزِّقُ سكونَ اللّيلِ . وبدا الضَّوءُ الخافِتُ المنبعِثُ من شُموع الدَّير ، كالخيطِ الأبيضِ في الثَّوبِ الأسود . واشتَدَّتِ الرِّياحُ فكان لها في النُّفوسِ وقعُ النَّحيب ، فزادَ ذلك المكانَ وَحشة . ورفعَ الشَّريفُ بوفيموسُ رأسَه ، وتمهَّلَ في سَيرِه ، فجذَبَ أتباعُه أعِنَّة جيادِهم ؛ وأرهَفُوا آذانَهم ، حتى إذا ما أصدَرَ إليهم أوامِرَه ، نَفَرُوا خِفافًا لإنفاذِها . ولكنَّ شَفَتَيه لم تتحرَّكا ، بل مَدَّ بَصَرَه أمامَه ، وقد لاحَ الخَجلُ في مُحَيَّاه ، وخَفَقَ قلبُه ، واستيقَظَتْ مشاعِرُه ، وأريقت عواطفُ الحبِّ في جوفِه ، ففي ذلك الدَّير الذي يقع منه على مَرمَى حجر ، مَن شُغِفَ بها حُبًّا ، وسَلَبَته

طُمأنينتَه ، وجعلَته حَليفَ السُّهاد .

واستمرَّ فى صَمتِـه ، وإن كـانت إحساسـاتُه تمـورُ فَوَّارةً بين جوانِحه . واشتدَّ به وَجدُه ، فإذا به يفكّـرُ بقلبه ؛ فَلَكزَ جَوادَه وانطلَقَ كالسَّهم صوبَ الدَّيـر ، وأتباعُـه يعـدُونَ فـى أثَرِه ، حتّـى إذا بَلَغَـه اقتَحَمــه عَنوة ، ودخل يُنقّبُ عمَّن تعَلَّق بها الفُؤاد .

وهَبَّـتِ الرَّاهِبـاتُ مفزُوعـات ، ورُحــنَ يُهَروِلْــنَ مرعوبـات . ودَوَّت فـى جَنَباتِ الدَّيـر صيحـاتُهنَّ ، فلم يحفِل بوفيميوسُ ورجالُه بصراخِهنّ ، بـل ظَلُّـوا فى تَجْواهم ، يُديرُونَ العُيونَ فى وجـوهِ الرَّاهبـات ، ولمَحها بورِفيميوس فى ثوبٍ أبيض ، وقدْ تهدَّلَ شعرُها على كَتِفَيها ؛ فاشـتدَّ وَجيـبُ قلبِـه ، وهَفتْ رُوحُـه إليها ، فتقدَّمَ منهـا ، وحَمَلَهـا بيـنَ ذراعَيـه ، ثـم دارَ على عَقِبَيه ، وانسابَ بها وهو يحسُّ أنَّـه يضُمُّ الدُّنيـا إلى صدرِه ، وامتطَى جَـوادَه ، وقـد أركَبهـا أمامَـه ،

وانطلقَ بها إلى قصرِه ، وأتباعُهُ يعدُونَ خلفَه .

وذاعَ في صِقلّيـة ، أن الشَّـريفَ بوفيميـوس ، اختطَفَ الرَّاهبةَ التى هامَ بحبِّها من دَيرِها . وبلغَ النبأُ مسامعَ قُسطنطين ، بَطريـق صِقلّيـة ، فثارَ واشتدَّت ثَورَتُه ؛ فرفـعَ الأمـرَ إلى الإمبراطورِ ميخـائِيلَ الثانى بالقُسطنطينيَّة ، فأحنقَ الإمبراطورَ ذلـك النَّبأ ، وزاد في هَمِّه . إنه لَيرى العربَ يستلُّونَ أملاكَـه مِن يدِه قطعةً قطعة ، ويرى الناسَ يثورون عليـه في بلاده . وكأنّما لم يكن في كلِّ ذلك ما يكفيه ، فيهبُّ ذلـك الشَّريفُ المفتونُ ويتحدَّى سُلطانَه .

وقد رأى الإمـبراطورُ أن يبطـشَ بذلـك العـابث ، لِيُعيدَ إلى نفسه هَيبَتَها ؛ فكتَبَ إلى البَطريقِ قُسطنطينَ أن يحاكم بوفيميوس ، وأن يحكمَ عليه بِجَدْعِ أنفِـه ، عقابا له على مـا اقتَرفَ من جُرم ، وليكونَ عِبرةً لكلِّ مَن تُوسـوِسُ لـه نفسُـه الخروجَ عـن الطّاعة ،

والعبثَ بأمنِ البِلاد .

وبلغَ بوفيميوسُ ما قضى به الإِمبراطور ، فغادَرَ « بالرم » فارًّا بنفسِه ، وذهبَ إلى سِرَقُوسة ( سيراكوزا ) ، وأعلنَ أصحابَه أن الإِمبراطورَ أمرَ بمحاكَمتِه ، فغضِبُوا له ، وجمعوا جموعَهم ليُعينُوه على الصُّمودِ فى وجهِ الإِمبراطور .

واشتدَّ ساعِدُ بوفيميوس ، فثارَ فى عِصابَتِه على حاكمِ المدينة ، واستولَى على سِرَقُوسة . وأثارَ ذلك النّصرُ حَنَقَ البَطريقِ قُسطنطين ، فجمعَ جَيشًا وانطلقَ به إلى ذلك الثّائِرِ ليُؤدِّبَه ، ولكن بوفيميوس هزَمَ جيشَ البطريق ، وأجبرَه على الفِرار إلى « قطانيا » .

وشقَّ ذلك على الإِمْبراطور ، فبعثَ بأساطيلِه إلى صِقِلّية ، وسَيَّرَ الجيوشَ إلى ذلك الثّائِر ، الذى شقَّ عَصا الطاعة . والتقى الجَمعان ، ودارت رَحَى الحرب ، وحَمِىَ وطيسُها ، ولم يُطق بوفيميوس

وعصابتُه الصبرَ أمامَ ذلك الجيشِ المتدفِّق كالموج ، فانهزَمُوا ، وأسرعُوا إلى مراكبهم ، لتقلِعَ بهم بعيدا عن شواطىء صِقِلّية .

٢

وصلت مراكبُ بوفيميوسَ وصحبِه إلى تونس ، فهَبَطوا منها : ويَمَّمَ بوفيميوس إلى قصرِ الأميرِ زيادةِ اللّه بنِ الأغلب ، ودخلَ عليه ، وطفقَ يذكرُ له ما تقاسِي أهلُ صِقلّية ، من صنوفِ العذاب ، وجعلَ يُزَيِّنُ له فتحَ الجزيرة ، لتخليصِ أهلِها من طُغيانِ الرُّومِ ، الذين أسرَفُوا في استِغلالِ الجزيرةِ واستنزافِ مَوارِدِها ، بعدَ أن خرجَتْ من أيديهم سوريَّةُ ومِصر ، ليُعوِّضوا ما خسِرُوه .

وأطرقَ الأميرُ زِيادةُ اللّه يفكّر . كان يخشى أن تكونَ هذه الدَّعوةُ مكيدةً للإيقاعِ بالمسلمين ، فقال بوفيميوس :

- إذا ما خلّصتَنا ممّا نحنُ فيه من ذُلّ ، نادَينا بك ملكاً على البلاد .

فرفعَ الأميرُ رأسَه وقال :

- أستشيرُ رجالى ، ثم أنبئُكَ بما عزمت عليه .

وخرج بوفيميوس ، وأرسلَ الأميرُ إلى أسدِ بنِ الفرات ، قاضى قضاة قيروان . فأقبلَ أسدٌ فى مهابتِه ، فقد كان عالمًا جليلا ، جابَ الأقطارَ ، وشدَّ الرِّحال إلى مصرَ والشَّامِ والعراقِ ومكّة ، يجمعُ العِلمَ من أطرافِه ، وصحِبَ الإمامَ مالِك ؛ ثمَّ استَقَرَّ به المقامُ فى تونس ، وصارَ يقضِى بينَ النَّاس .

وقصَّ الأميرُ على أسِد بنِ الفُرات ما سمِعَه من بوفيميوس ، وما جاءَ من أجلِه ، ثم قال :

- وما ترى الآن ؟

فقال أسد : « أرى أن تنتهزَ هذه الفُرصة ، وأن تبعَثَ بالجيوشِ إلى صقِلّية ، لعلَّ اللّه يفتحُ على

يديكَ هذه البلاد » .

ورنا الأميرُ إلى أسدٍ رَنوةَ إكبـار . كـان يعلـمُ أنـَّه عالِمٌ مـن كبـارِ العُلمـاء ، وبحّـارٌ من أفـذاذِ الرِّجـالِ الذين ركِبوا البحر ، فقال له :

ـ لن يخرُجَ فى هذه الغزوةِ غيرُك .

وتأهَّبَ أسدُ بنُ الفرات ، قـاضى قُضـاةِ قـيروان ، ليقُودَ أسطولَ المسلمينَ إلى صِقِلّية .

وفـى ربيـعِ الأوَّلِ مــن عـام ٢١٢ بعـدَ هِجـرةِ الرَّسول ، خرج إلى عـرضِ البحـر سبعونَ مَركبـا ، وعشرةُ آلافِ مقاتل ، وتسعُ مِائـةِ فـارس . وأصـدَرَ العالِمُ البحّارُ أمره بالسَّير ، فأبحَرَ الأسطولُ الإسلامىّ ، وأبحرت معه مراكبُ بوفيميوس ، لتخليصِ أهلِ صِقِلّيةَ من ظلمِ الرُّوم ، ولِتُنكّسَ النّسرَ الرُّومـانىّ ، رمزَ العَسفِ والجور ، وليُرفرفَ على ربـوعِ الجزيـرةِ عَلَمُ الأمن والسلام .

# ٣

انطلَقَ الأسطولُ الإسلاميُّ إلى الشَّمالِ الغربيّ مِن الجزيرة ، ودخلتِ المراكبُ مَرفأ مازارا ، وهبطَ المجاهدونَ إلى الشّاطىء ، واصطفّ الفُرسان ، وعَبّأَ ابنُ الفُراتِ جيشَه ؛ ثم انسابَ صَوبَ الشَّرقِ ليستولىَ على الجزيرةِ كلّها ، ويُخلّصَها من طغيان الرُّومان . .

وتقَدَّمَ على حَذَر ، وما لبِثَ أن وجَدَ أمامَه جيشًا من الرُّومِ جرّارا ، جيشًا يعادِلُ عشرةَ أمثالِ جيشِه ، فى عُدَّةٍ عظيمة . فلم يضطرِب ابنُ الفُرات ؛ كان واثقًا من رِجالِه ، وكان على يقين أنّ قلوبَ أعدائه هواء .

وراحَ يُحرّضُ رجالَه ، ويُذَكّرُهم بأفضلِ ما فيهم ، وقرأ « يس » ثم كبَّرَ ، فانقَضَّ المسلمونَ على

أعدائِهم انقضاضَ الصَّاعِقَة ، وسالتِ الدّماء ، وبلغَت قلوبُ الرُّوم الحناجر ، وزُلزِلُوا زِلزالاً شديدا ، ولاحَ النّصرُ للمسلمين ، فأخذوا يحتسُّونَ بسيوفِهم ، وركِبوهم من كلّ جانب . فلم يجدِ الرُّوم مَنجاةً لهم إلاّ الفِرار ، فوَلُّوا الأدبارَ ، وقد خلّفُوا وراءَهم دوابَّهم وأموالَهم ؛ فراحَ المسلمونَ يجمعونَ الغنائِم ، وقد أفعمَ النّصرُ قلوبَهم غبطةً وسرورا .

وتقدَّمَ المسلمون ، فراحتِ الحُصونُ تسقُطُ في أيديهم حِصنًا حِصنا ؛ حتى إذا ما بلغُوا قلعةَ الكراث ، ألفَوا خلْقًا كثيراً من الرُّوم قد تحصَّنُوا بها ؛ فحاصَرُوها ، وراحوا يضربونَها بالمَنجَنِيق ، ويُلقُونَ عليها النّيران ؛ حتى إذا ما اشتدَّ الضّيقُ بالمُدافِعين ، أرسلُوا رسلَهم إلى ابنِ الفُرات يُفاوِضُونَه في الصُّلح .

رأى بوفيميوسُ ما حلَّ بالحامِية ، فضايَقَه نصرُ المسلمين ؛ فابنُ الفُراتِ لم يُشركهُ معه في القتال ،

بل أمَرَه أن يعتزِل ؛ فخَشِيَ إن استَمَرَّ نصرُ المسلمين ، أن يخرجَ صفرَ اليدين ، دونَ أن يُحقّقَ بعضَ أطماعِه ، فقد كانت نفسُه تهوى أن يولّى على الجزيرةِ من قِبَلِ الذين حرَّضَهم على غَزوها ، ولكنّه يُحسُّ الساعةَ أن ذلك لن يكون ؛ فعزمَ على أن يُعاونَ من فى الحامية ، لعلّهم يذكرونَ له فضلَه ، إذا ما ثَبَتُوا فى وجه ذلك التيّارِ الجارِف ، وتمكّنوا من ردِّ المسلمين .

أرسلَ بوفيميوس إلى الرُّسلِ أن يثبتوا ، وأن يحفَظُوا بلَدهم ، ووعدهُم أنه سيمُدُّ إليهم يدَ العَون . فعزمَ المفاوضونَ على خديعةِ ابنِ الفُرات ، حتى يفِى لهم بوفيميوسُ بوعدِه ؛ فصالَحوا المسلمين على أن يبذلوا لهم الجزية ، وسألوهم ألاّ يقرَبوا منهم . فأقرَّ ابنُ الفُراتِ ذلك الصُّلح ، وتأخّرَ عنهم أيَّاما ، حتى يحملوا إليه أموالهم .

وفى سكونِ الليل ، راح بوفيميوسُ يبعثُ إلى رجالِ القَلعةِ ما يحتاجُونَ إليه ، إذا ما عادَ المسلمونَ لحصارِهم ، حتى إذا ما أحسُّوا مَنَعةً ، نَقَضُوا عهدَهم ، وناصَبُوا المسلمينَ العَداء . فعادَ ابنُ الفراتِ إلى حِصارِهم وقتالِهم ، وبثَّ السَّرايا فى كلِّ ناحية ، وحاصَرَ سِرَقُوسة ( سيراكوزا ) برًّا وبحرا ، وبوفيميوس فى رفقتِه ، يرقبُ الفرصة التى تسنَحُ له ليُحقِّقَ مطامعَه .

٤

كان ابنُ الفراتِ يضيِّقُ الخِناقَ على سِرَقوسَة ؛ وقبلَ أن يَلوحَ له النّصر ، تفشَّى الطّاعونُ فى جيشِه ، فراحَ الموتُ يحصُدُ الرِّجالَ الصنّادِيد . وأخذَ ابنُ الفراتِ يُحارِبُ الوَباءَ والأعداءَ ؛ انتصرَ على الرُّوم ، ولكنَّ المرضَ قضى عليه .

هَلكَ أسدُ بنُ الفراتِ أميرُ الجيوش ، فقام محمدُ بنُ أبى الجوَارى يقودُ المسلمين ، وقد فتَّ الطَّاعونُ فى عَضدِهم ؛ فقرَّ عَزمُه على العَودةِ بما بقِىَ معه من النَّاس ، ولم يجدْ فى ذلك من بأس ؛ فقد عادَ خالدُ ابنُ الوَليدِ بالمسلمينَ من مُؤتَة ، بعدَ أن استُشهدَ القُوَّادُ الثلاثةُ الذينَ ولاَّهم الرَّسول ، وكانت هذه العَودةُ أقربَ إلى النَّصر .

أمر ابنُ أبى الجَوارى رجالَه أن يركَبُوا مراكِبَهم ، وأن يتأهَّبُوا للرَّحيل ؛ فامتلأَتِ المَراكبُ بالرِّجال ، وقبلَ إقلاعِها لاحَ الأسطولُ الرُّومانىّ ، وقد سدَّ بابَ المرسى ؛ فرأى ابنُ أبى الجوارى ألاَّ مفرَّ من القِتال ، فعزَمَ على العودةِ إلى الجزيرة ، وأن ينطلِقَ غازِيًا فيها إلى أن يقضىَ اللّه أمرَه .

وغادَرَ الرِّجالُ مراكبَهم ، وأمرَهم ابنُ أبى الجَوارِى بإحراقِها ، فاندلَعَتِ النِّيرانُ فيها ، ولم يبقَ

للمسلمينَ إلا أسيافُهم ، وما يستولونَ عليه من أيدى أعدائهم .

وتقدَّموا كاللُّيوثِ إلى مدينة منباو ، وحَصرُوها ؛ ولم تنقَضِ ثلاثةُ أيَّام إلا كانت المدينةُ فى حَوزَتهم . فشدَّ ذلكَ أزرَهم ، وأنعَشَ الأملَ فى صدورهم ، فكانوا كلَّما حاصَرُوا حِصنًا سقطَ فى أيديهم ، وفيما هم فى تقدُّمهم ، جاء إلى الجزيرةِ أُسطولٌ أندلُسىٌّ بقيادةِ أصبغ ، فخفَّ المسلمونَ الأندلسيُّون إلى إخوانِهم ؛ ثمَّ انطلقَت الجيوشُ الإسلاميةُ إلى « بلوم » عاصمةِ صِقِلِّية ، ليضَعُوا أيديَهم عليها .

ودَوَّى فى الفضاء تكبيرٌ وتهليل ، فالتفتَ المسلمونَ وقد هزَّهم الفرح ، فقد جاءتهم جيوش ابنِ الأغلَب ، لِتُشاركَهم فى حِصارِ العاصمة . وضيَّقَ المسلمونَ الخناقَ على المدينة ، حتى أجبَروا حاميتَها على تسليمها .

واشتدَّتْ نفوسُ المسلمينَ بهـذا الفَتـح المُبـين ، ثـمَّ سارُوا إلى مدينةِ ( كاسـتروجوفانى ) ، وفـى رفقتهـم بوفيميـوس . فلمَّـا بلـغَ أهـلَ المدينـة تقـدُّمُ الجيـوشِ الإسلاميَّة صَوبَهـم ، خـرجَ وُجـوهُ النَّـاسِ لاستقبالِ الغازين ، وقبَّلوا الأرضَ بين يدَى بوفيميوس ، وقالوا له : إنهم يُوَلُّونَه عليهم . فانشرَحَ صـدرُه ، واطمـأنَّ إليهـم ، وسـارَ معهـم ؛ حتَّى إذا مـا خيَّـمَ الظَّـلام ، انقَضُّوا عليه وقتلوه !

وأطبقتِ الجُيوشُ الإسلاميَّةُ علـى المدينـةِ مـن كـل جـانب ، فلـم يقـوَ أهلُهـا علـى الصُّمـود فـى وجـهِ المجاهِدين . فما تَصرَّمَتْ أيَّامٌ حتَّى تقلَّصَ ظلُّ النَّسـر الرُّومـانىِّ عـن المدينـة ، وراح اسـمُ اللّـه يـتردَّدُ فـى جنباتِها ، آناءَ اللّيلِ وأطرافَ النَّهار .

وأخـذَتِ المُـدُنُ تسـقُط ، واحـدةً إثـرَ أخـرى ؛ فسـقطت جورجنتـو ( جرجنـت ) ، وقطانيـة ،

ومنسنين . ولم يبقَ العلَمُ الرُّومانيُّ خفّاقًا إلاّ فوقَ سِرَقُوسة ( سيراكوزا ) آخرِ معاقِلِ الجزيرة ، ولكن لم يدم خفقانُه طويلا ، فسرعانَ ما أُنزِل ، وأُلقِيَ النّسرُ الرُّومانيُّ على الأرض ، لتُمزِّقُه سنابك الخيولِ العربيّة .

واستقرَّ المُسلمونَ في صِقلّية ، وراحَ المغامرون يتأهّبُونَ للوثْبة التالية ، فقد كانت تُراوِدُهم فِكرة غزو إيطاليا ؛ فما يفصلُ بينهم وبينها إلا مضيق مسيني ، وما كان ذلك المَضيقُ ليحولَ بين أصحابِ الآمالِ العريضة ، وغزو إيطاليا .